تاييس .. جول ماسينه

Jules Massenet THAIS

تقوم هذه الأوبرا على قصة الروائي الفرنسي الذائع الصيت "أناتول فرانس" A. France التي تحمل نفس الاسم والتي تصور الصراع بين الخير والشر في نفس الإنسان، وقد نظم كلماتها "لويس جاليه" Louis. Gallet. ووضع ألحانها الموسيقي الفرنسي "جول ماسينيه" J. Massenet وظهرت لأول مرة على مسرح "جران أوبرا" Grand Opera بباريس في ١٦ مارس عام ١٨٩٤.

شخصيات الأوبرا:

أثانيال: راهب	Athanael
نيسياس: فيلسوف	Nicias
تاييس: غانية	Thais
ألبين: رئيسة دير الراهبات	Albine
بالمون: رئيس دير الرهبان	Palemon

رهبان – راهبات – أصدقاء نيسياس – راقصات

زمن الأوبرا: نهاية القرن الرابع

المكان: الإسكندرية والصحراء المجاورة لها

الفصل الأول

المنظر الأول - صوامع الرهبان في الصحراء

يجتمع حول مائدة العشاء اثنا عشر راهبا، ويتساءلون عن سبب تأخير زميلهم "أثانيال". وما هي إلا برهة حتى يقبل الراهب المتخلف وقد تملكه إعياء شديد، ثم يتهالك على مقعده. وإذ يقدم إليه زملاؤه الطعام والشراب يرفض قائلا:

أثانيال: إن قلبي مفعم بالأسى. فلقد أتيت من المدينة الفاسدة التي ملأتها المرأة التي تدعى "تاييس" شرورا وآثاما.

ويصمت برهة كأنه يستجمع شوارد ذكرياته ثم يستطرد:

- حقيقة أني عرفتها عندما كنت شابا. غير أن الله عصمني عن الغواية، فوجدت سلاما هنا في الصحراء. وكم أكون سعيدا لو إنني قدت تلك الروح الساقطة الضالة إلى طريق الخلاص!

لكن رئيس المدير لا يوافق على هذا الرأي، فينصح الراهب قائلا:

رئيس الدير: من الأوفق ألا تندمج مع هذا الجيل الشرير يا أثانيال. فتلك هي الحكمة الخالدة!

وينهض الرهبان ثم ينصرفون إلى فراشهم، بينما يتوجه أثانيال إلى صومعته ويرقد فوق حشية أمامها. وتتراءى له "تاييس" طوال الليل في شكل رؤيا تقض مضجعه.

وفي مبرق الفجر يبث الراهب زملاءه الوداع ويتأهب للرحيل. لقد عقد العزم على تخليص "تاييس"!

المنظر الثاني – شرفة في منزل "نيسياس" بالإسكندرية

يتوجه أثانيال إلى منزل الفيلسوف "نيساس". وعندما يصل إلى الشرفة، يقف فيها ويرمي ببصره إلى المنظر القائم أمامه ويناجي نفسه قائلا:

– ها هي الإسكندرية!.. المدينة التي ولدت فيها – المدينة التي احتقرها لكل ما فيها من أبهة وجمال. ألا ليت ملائكة السماء تطهر هواءها المسموم!

ولا يكاد ينتهي من نجواه حتى تنبعث من داخل المنزل ضحكات عابثة، ثم يقبل نيسياس وقد لف كلا يديه حول جاريتين جميلتين! وما أن تقع عينه على الراهب الأشعث حتى يبادره بالسؤال:

نيسياس: ماذا عساي أن أفعل لصديقي القديم؟

أثانيال: لقد أتيت إلى هنا لأمكث يوما واحدا. وهدفي الوحيد أن أخلص تاييس وأقودها على طريق الله. فأين يمكنني العثور عليها؟

ويجيب الفيلسوف على سؤال الراهب بضحكة ساخرة ثم يقول:

نيسياس: لقد بعت آخر كرمة لأشتري صحبتها أسبوعا واحدا!.. وهي سوف تتناول العشاء عندي الليلة لآخر مرة!..

ويقول الراهب في توسل:

أثانيال: أعرني رداءً استخفي به. فيجب على المرء أن يحارب قوى الشر بنفس أسلحتها.

ويحضر العبيد الملابس الفاخرة، فيرتديها الراهب ويبدو فيها كأنه خلق من جديد!

ويحين موعد الحفلة، فيتوافد المدعوون على منزل الفيلسوف ويتجهون صوب الشرفة. وفجأة يهمس نيسياس في أذن الراهب:

نيسياس: احذر العدو الخطر!.. فها هي ذي مقبلة! وتقبل "تاييس" وقد ازدانت بكل ما يمكن أن تزدان به امرأة، فتحيي نيسياس وتشتبك معه في حديث لا تلبث أن تقطعه بسؤال مفاجئ عمن يكون ذلك الشخص الغريب. وهنا يقدم إليها نيسياس الراهب المتنكر قائلا:

نيسياس: إنه فيلسوف! وقد أتى ليلقنك التعاليم المقدسة!

تاييس: وماذا عساها تكون تلك التعاليم؟

فيجيب الراهب في وقار:

أثانيال: احتقار الجسد، وحب الألم، وتكفير عن الذنوب.

وتبتسم تاييس لصرامته ثم تسأله في سخرية:

تاييس: وماذا تعرف عن حكمة الحب؟!.. ألا فاجلس معنا وتوج نفسك بإكليل من الورد، واعلم أن ما من شيء أبقى وأوقع من الحب!

ويمور الاشمئزاز في نفس الراهب عندما تطرق أذنه تلك الكلمات السافرة، فينهض مسرعا مستأذنا في الانصراف وهو يصيح بتاييس:

أثانيال: سوف لا يتم خلاصك إلا في منزلك!

ثم يرتاع عندما تتخذ أمامه وضعا كله فتنة وإغراء.. إنه نفس الوضع الذي تراءت له فيه في شكل رؤيا أمام صومعته في الصحراء!

الفصل الثاني

المنظر الأول - غرفة في منزل تاييس

تجلس تاييس بمفردها وقد امتلأت الغرفة من حولها بالطنافس والرياش الفاخرة. لقد شربت كأس الحياة مترعة حتى ثملت، وأشعلت جوعها الحسي حتى زهدت، ثم بدأت تميل إلى الصدوف عن مجال السمر. وها هي ذي الآن جالسة تتأمل وجهها من مرآة صغيرة أمسكتها بيدها وكأنما تسائل نفسها: "ترى هل تخلى عني جمالي؟..."

وحالما يظهر بالباب الراهب أثانيال. وما أن تقع عينه عليها حتى يقول في شبه صلاة:

– الهم أسدل على جمالها ستارا!

ثم يتقدم نحوها بخطى وئيدة، وينشأ يحدثها عن السعادة الروحية والحياة الأبدية. إلا أنه لا يستطيع أن يصمد طويلا أمام طغيان جمالها الصارخ، فحالما توفر نفسه، ويكاد يهم بتمزيق رداءه المستعار ويصيح بكل قواه لاعنا "الموت الحي" الذي يتمثل في شخصها!

لكن تاييس ترتمي أمامه، وتصرح له بأنها بدأت تحس نشوة جديدة تشع في نفسها. ثم تبكي في مرارة وحرقة وكأنها تريد أن تغسل بدموعها كل ما علق في نفسها من أدران الخطيئة.

المنظر الثاني - أمام منزل تاييس

يرقد أثانيال تحت رواق أمام منزل تاييس. الليل مهيب وليس هناك من ضوء سوى أشعة القمر الباهتة تتسلل إليه من جوانب الرواق.

وتدخل تاييس وقد أمسكت بيدها مصباحا ينير لها الطريق، وعندما تصل إلى الراهب تقول له بصوت هامس:

تاييس: أيها الأب، لقد استقرت كلماتك في قلبي وأشاعت فيه نورا عظيما. فماذا عساني أن أفعل؟

أثانيال: إن فجر السلام قريب. وعندما يسفر، سأرافقك إلى دير تحيين فيه حياة بركة وسلام. ولكن عليك أولا أن تحطمي كل أثر لحياتك الآثمة!

وتتوسل إليه تاييس أن يستثنى مما ستحطمه تمثال "أيروس" إله الحب، الذي أهداه لها نيسياس. غير أن أثانيال يرفض طلبها في إصرار، فيمسك بالتمثال ويهوى به على الأرض في حنق. وبعد قليل يظهر "نيسياس" وبصحبته راقصة وأصدقاء وعبيد يحملون مشاعل. وقبل أن يتم الفيلسوف تحيته، يقاطعه الراهب قائلا في صرامة وحزم.

أثانيال: إن تاييس لم تعد ملكا لك. أنها لم تعد تاييس الدنيوية.. انظر إليها الآن وكأنها ولدت من جديد!

وتتقدم تاييس وقد ارتدت ثوبا من الصوف الخشن وعصبت رأسها برباط أسود ثم تقف برهة بجوار أثانيال تحملق معه في ألسنة النار التي بدأت تندلع من داخل المنزل.

لقد اشتعلت الغانية النار في كل ما دنسته يد الرذيلة!

وإذ يهم الاثنان بمغادرة المكان، يندفع نيسياس نحو تاييس ويقول لها في توسل وقد أمسك بها: **نيسياس**: لا تتركينا!

لكن أثانيال ينهره صائحا:

أثانيال: لا تضع يدك الآثمة على عروس الله!

ويقف الجميع صامتين يشاهدون النار المضطرمة وهي تلتهم المنزل. وعندما تبدأ الجدران في الانهيار، ترحل تاييس مع أثانيال في خشوع.

الفصل الثالث

المنظر الأول - واحة في الصحراء

في وقدة الشمس المحرقة، ووسط الرمال المترامية الضاربة في جوف الصحراء، يتقدم أثانيال ومن ورائه تاييس في طريقهما إلى الدير وقد أعياها السير وهدهما العطش. وتحاول تاييس أن تعبر للراهب عن مقدار التعب الذي ألم بجسدها، فلا يجيبها إلا في خشونة وقسوة بالغين:

أثانيال: احتقري جسدك، وكفري عن ذنوبك!

لكن تاييس يشق عليها احتمال التعب، فتنهالك على الأرض في إعياء. ولا يجد أثانيال بدا من أن يعاملها في شيء من اللين!

أثانيال: ربما أكون أجهدتك كثيرا. دعيني إذن أحضر لك شيئا من الماء البارد والفاكهة لتستردي نشاطك.

ويمضي أثانيال، فتنتظر تاييس عودته في هدوء. لقد امتلأت نفسها سلاما روحيا جميلا! وحالما يعود أثانيال وقد حمل إليها قدحا من الماء وبعض الفاكهة. ثم يسمع من بعيد صوت صلاة منبعثة من دير الراهبات.

وبعد قليل تقبل الراهبات. ويتقدم أثانيال من "ألبين" – رئيسة الدير – ويعهد إليها بتاييس التائبة. وإذ تهم تاييس بالانصراف مع بقية الراهبات تودع أثانيال قائلة:

تاييس: سنتقابل ثانية في المدينة السماوية!

ويبقى أثانيال يتبع تاييس بعينيه وهي تتقدم نحو الدير ويقول في صوت خافت متهدج:

– سوف لا أراها بعد اليوم!

المنظر الثاني - حديقة دير الراهبات

تجثو الراهبات للصلاة تحت شجرة تين ظليلة مرتفعة. وفي ظل الشجرة ترقد تاييس وهي في النزع الأخير، فقد أصابتها حمى أوشكت أن تقضي عليها.

وتقول رئيسة الدير في خشوع:

ألبين: ثلاثة شهور أمضتها وهي تبكي وتبتهل إلى الله، لقد سحقت جسدها التوبة!

وفي هذه اللحظة يظهر أثانيال بباب الحديقة! فتتجه نحو رئيسة الدير لتحييه. ويبدو وجه الراهب شاحبا وقد ارتسمت عليه علامات الأسى والحزن الدفين.

وتنسحب رئيسة الدير ومن ورائها الراهبات، في حين يتقدم أثانيال في تثاقل وإعياء نحو تاييس. وإذ تراه المحتضرة تسأله في صوت متحشرج وقد دنت نهايتها:

تاييس: هل تذكر تلك الرحلة المشرقة التي قدتني فيها إلى هنا؟...

وكأنما حركت بسؤالها أمواج نفسه الملتاعة، وجعلت ما كان كامنا في أعماقه يطفو على السطح، فصاح مجيبا:

أثانيال: إنني لا أذكر سوى جمالك!..

لكنها وهي في النزاع الأخير لا تتبين شيئا مما يقول، وإنما تسرد عليه وصفا بهيجا للملائكة الذين يخيل إليها أنها تراهم بعينيها الكليلتين.

وفي فورة من العاطفة اليائسة يصرح لها أثانيال بحبه الدفين!

ولكن تاييس لا تسمعه.. فقد صعدت روحها إلى السماء! ويسدل الستار على الاثنين.... على الغانية التي ضلَّت، ثم زهدت، فاستقامت... والراهب الذي استقام، ثم زهد، فضلّ!